

" البشاشة وحسن اللقاء "

ومن الاخلاق الكريمة والتي تغرس المحبة ، والمودة ، وتزرع الألفة فى قلوب المسلمين، وتزيل ما بينهم من شئنان ، وفرك وبغضاء ، وشحناء وكراهية ، يتجلى ذلك فى قول الحق سبحانه :-

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَنَ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة الأنعام: ٥٤]

بعد أن نهى سبحانه نبيه عن طرد المستضعفين من حضرته ، استمالة لكبراء المتكبرين من قومه وطمعاً فى إقبالهم عليه ، وسماعهم لدعوته ، كما اقترح بعض المشركين ، أمره بأن يلقى الذين يدخلون فى الاسلام إلا بعد ان عن بينة وبرهان بالتحية والسلام ، والتبشير برحمة الله ومغفرته ، فقد كان السواد الأعظم من الناس كافرين ، اما كفر جحود وعناد ، وإما كفر جهل وتقليد للأباء والأجداد وكان يدخل فى الإسلام الأفراد بعد الافراد ، وكان أكثر السابقين من المستضعفين والفقراء .

وكان النبى - ﷺ - يكون تارة معهم يعلمهم ويرشدهم وتارة يتوجه الى أولئك الكافرين يدعوهم وينذرهم .

فيقول للنبي - ﷺ - اذا جاءك القوم الذين يصدقون بكتابتنا ، وحججنا ، ويقرون بذلك قولاً وعملاً ، سائلين عن ذنوبهم التى فرطت منهم ، هل لهم منها توبة ، فلا تؤيسهم منها ، وقل لهم سلام عليكم يعنى أمنة الله لكم من ذنوبكم أن يعاقبكم عليها بعد توبتكم منها ، وان الله تعالى أوجب على ذاته المقدسة فضلاً منه وإحساناً ، الرحمة بِخَلْقِهِ ، فإن فيما سخر للبشر من أسباب المعيشة المادية ، وفيما أتاهم من وسائل العلوم الكسبية لآيات بينات على سعة الرحمة الربانية ، وتربية عباده بها فى حياتهم الجسدية والروحية ، ثم يبين أصلاً من أصول الدين فى هذه الرحمة للمؤمنين فقال ﴿.....أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة الأنعام: ٥٤] والمعنى ان من عمل منكم عملاً تسوء عاقبته ، للضره الذى حرمه الله لأجله ، حال كونه ملتبساً بجهالة دفعته الى ذلك السوء ، كغضب شديد حمله على السب والضرب ، أو شهوة مغتزمة قادته إلى انتهاك العرض ، ثم تاب ورجع عن ذلك السوء بعد أن عمله شاعراً بقبحه ، نادماً عليه خائفاً من عاقبته وأصلح عمله بأن اتبع ذلك العمل السيء بعمل يضاده ويذهب أثره من

قلبه ، حتى يعود إلى النفس ذكائها ، وطهارتها وتصير أهلاً للقرب من ربه ، فشأنه تعالى في معاملته إنه واسع المغفرة والرحمة ، فيغفر له ما تاب عنه ، ويتعمده برحمته واحسانه . وقد بيّن سبحانه في هذه الآيه من أنواع الرحمة المكتوبة لعباده ما هو أحوج إلى معرفته بنص الوحي ، وهو حكم من يعمل السوء بجهالة من عباده المؤمنين ، وبقية أنواعها ممكن أن يستدل عليها بالنظر في الأنفس والآفاق ، وأمر نبيه بتبليغه لمن يدخلون في الدين ليهتدوا بها حتى لا يغتروا بمغفرة الله ورحمته فيحملهم الغرور على التفريط في جب الله والغفلة عن تزكية أنفسهم ، وحتى يبادروا إلى تطهيرها من إفساد الذنوب خوف ان تحيط بها خطيئتها يقول تعالى :- ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ﴾ [سورة النساء: ١٧]

ويقول القرطبي وهذه الآيه نزلت في الذين نهى الله نبيه -عليه الصلاة والسلام- عن طردهم فكان إذا رآهم بدأهم بالسلام وقال: " الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام ، وعلى هذا كان السلام من جهة النبي -صلى الله عليه وسلم- وقيل أنه كان من جهة الله تعالى ، والمعنى أبلغهم منا السلام ، وعلى أية حال فهذا دليل على فضلهم ومكانتهم عند الله .

وتقدير هذا المعنى بأنه من الواجب احترام الصالحين ، واجتناب ما يغضبهم ويؤذيهم فان في ذلك غضب الله سبحانه ، وقال بن عباس -رضى الله عنهما- نزلت الآيه في أبي بكر وعمر وعثمان وعلى -رضى الله عنهم- ويقول الفضيل بن عياض " جاء قوم من المسلمين الى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقالوا إنا قد أصبنا من الذنوب فاستغفر لنا فاعرض عنهم فنزلت هذه الآيه ، كما روى انس بن مالك مثله .

وقوله تعالى "كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ" يعني أوجب على ذلك بخيره الصدق ، ووعده الحق ، فخطوب العباد على ما يعرفونه من انه من كتب شيئاً فقد أوجب على نفسه ، وقيل كتب ذلك في اللوح المحفوظ أنه من عمل خطيئة فهو بها جاهل ، وقوله ﴿تَعَالَى فَإِنَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [سورة الأنعام: ٥٤] قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- " لما قضى الله على الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش " إن رحمتي غلبت غضبي " وقال -صلى الله عليه وسلم- " اذا فرغ الله من القضاء بين الخلق أخرج كتاباً من تحت العرش إن رحمتي سبقت غضبي وأنا ارحم الراحمين فتعين فيضة اوفيضتين فيخرج من النار خلقاً لم يعملوا خيراً مكتوب بين أعينهم عتقاء الله " ويقول تعالى "وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ " وقيل معنى "كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ" يعني ألزم نفسه الرحمة تفضلاً منه

وإحسانا فإنه غفور رحيم يعنى من عمل ذنباً ، أو ارتكب خطيئة ، أو اجترح سيئةً ، ثم تاب من بعد ذلك وأصلح عمله فإن الله يغفر له ، وهو وعد بالمغفرة والرحمة لمن تاب وأصلح . وفي ذات المعنى يقول الحق سبحانه :- ﴿ وَإِنْ جَاحُوا لِسَلْمٍ فَاجْحَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [سورة الأنفال: ٦١]

ومن الأخلاق في القرآن الكريم قبول السلم والصلح من جميع الناس حتى الأعداء ، والمعنى إن مال العدو عن جانب الحرب إلى جانب السلم ، ولم يغتر بقوته فاجح لها لأنك أولى بالسلم منهم ، وفوض الأمر إلى الله ، ولا تخشى غدرهم ومكرهم ، فالله هو السميع لما يقولون ، العليم بما يفعلون ، فلا يخفى عليه ما يأترون به من الكيد والخداع ، وإن خفى ذلك عليك ، وإن أرادوا بجنوحهم للسلم الخداع ، والمكر والكيد ليفترصوا الفرص كانتظار الغرة والخديعة التي تمكنهم من أهل الحق ، أو الاستعداد للحرب فالله يكفيك أمرهم ، وينصرك عليهم ، ومن آثار عنايته بك أن أيدك بتسخير المؤمنين لك ، وجعلهم أمة متحدة متآلفة ، ومتعاونة على نصرك ، وأن سخر لك ما وراء الأسباب من خوارق العادات مثل الملائكة التي تثبت القلوب في وقعة بدر الكبرى وقد جمعهم الله على الإيمان بك ، وبذل النفس والمال في مناصرتك ، بعد التفرق والتعادى الذي كان إثر حروب طويلة وضغائن موروثة مثل الذي كان بين الأوس والخزرج من الأنصار .

يقول الله تعالى :- ﴿...بِعَمَتِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا... ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٣]

وقد كاد يقع شئ من التباغض من المهاجرين والأنصار حين قُسمت الغنائم في غزوة حنين فكفاهم الله شر ذلك ، وذلك بفضلته تعالى ، وحكمة رسول الله - ﷺ - وفي الآية إيحاء وإشارة إلى أن النصر ينال بالأسباب والتي من أهمها التآلف والاتحاد بفضل مقدر الأسباب ، ورحمته بالعباد ، لذلك يقول الحق سبحانه :- ﴿...أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ... ﴾ [سورة الأنفال: ٦٣]

ولهذه المعاني المتقدمة حين طلب المشركون في عام الحديبية الصلح ووقعت الحرب بينهم وبين رسول الله - ﷺ - تسع سنين أجابهم النبي إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخرى ، وقال مجاهد -رضى الله عنه- نزلت الآية في بني قريظة ، والصواب والراجح إن الآية نزلت في معركة بدر لان السياق يؤيد ذلك ، ويقول القرطبي " وإن كان للمسلمين مصلحة للصلح ، لنفع يحتاجونه أو ضرر يدفعونه ، فلا بأس أن يبتدئ المسلمون بالصلح إذا احتاجوا إليه ، وقد صالح رسول الله - ﷺ - أهل خيبر على شروط نقضوها

فنقض النبي - ﷺ - صلحهم ، وقد هادن قريشاً لمدة عشرة أعوام حتى نقضوا عهده ، وما زال الخلفاء والصحابة على هذه السبيل التي شرحناها سالفة ، وبالجوه التي شرحناها عاملة .

ويقول القشيري . رحمه الله . إذا كانت القوة للمسلمين فينبغي ألا تبليغ الهدنة سنة وإذا كانت القوة للكفار جازت مهادنتهم عشر سنين ، ويقول الشافعي . رحمه الله . لا يجوز مهادنة المشركين أكثر من عشر سنين وذلك على ما فعل النبي - ﷺ - عام الحديبية فإن هؤن المشركون أكثر من ذلك فهي منتقضة لأن الأصل غرض قتال المشركين حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية .

وخلاصة القول ان الأمر يفوض لله أولاً ، ثم للسلطان أو الحاكم حسب الأحداث السياسية ، والمواقف الدولية ، والعمل بما يكون في صالح المسلمين ، فإن كل عصر له سياسته ، وكل زمان له طبائعه والأمور دائماً مختلفة ، ومتباينة ، ومتغيرة .

ويمضى القرآن الكريم قائلاً في نفس المعنى والهدف والغرض فيقول تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١﴾ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة يونس: ٩: ١٠] والمعنى يهديهم ربهم سبحانه الى طريق الجنة وذلك بسبب إيمانهم تجرى من تحت قصورهم الأنهار ، أو من تحت أسرتهم وهم مقيمون في جنات النعيم ، ودعواؤهم في الجنة " سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ " وفي الحديث يلهمون التسييح والتحميد كما تلهمون النفس ، والمعنى ان كلامهم في الجنة تسييح الله ، وتحية بعضهم بعضاً " سلام عليكم " كما تحييهم الملائكة بذلك ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة الرعد: ٢٣: ٢٤] وأخر دعائهم أن يقولوا " الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ " وفي الآية إشارة إن الإيمان والعمل الصالح هما سبب الهداية والفوز برفيع الدرجات ، والوصول الى أقصى الغايات ، وانهم يبدأون كل دعاء وثناء عليه تعالى بمناجاته بهذه الكلمة " سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ " وتحييتهم في الجنة كلمة " سَلَامٌ " الدالة على السلامة من كل مكروه ، وهي أيضا تحية المؤمنين في الدنيا ، وهذه التحية تكون من الله . عز وجل . حين لقاءه ، يقول سبحانه ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ... ﴾ [سورة الأحزاب: ٤٤] ومن الملائكة لهم عند دخول الجنة قال تعالى ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ [سورة الزمر: ٧٣] وتكون من بعضهم لبعض قال تعالى ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا ﴾ ﴿٥٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ [سورة الواقعة: ٢٥: ٢٦] وان

آخر كل حال من أحوالهم من دعاء يناجون به ربهم ، ومطلب يطلبونه من إحسانه وكرمه
 "..... الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ....." .

ويبضى القرآن الكريم قائلًا في نفس المعنى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [سورة الفرقان: ٦٣]. والإضافة هنا للتشريف والتعظيم يعنى العباد الذين يحبهم الله وهم جديرون بالانتساب اليه ، وهم الذين يمشون على الأرض في لين وسكينة ووقار ، لا يضربون بأقدامهم شرًا ولا بطرا ، ولا يتبخرون في مشيتهم ، وإذا خاطبهم السفهاء بغلظة وجفاء وقساوة طبع ، وغلظة كبر ، وسوء خلق ، قالوا قولاً يسلمون فيه من الذنب ، وينأون عن السيئات ، ويتعدون عن المناكر ، لا يجهلون على أحد وإن جهل عليهم حكموا .

ويقول ابن كثير . رحمه الله . هذه صفات عباد الله المؤمنين يقول تعالى : ﴿... وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا...﴾ [سورة لقمان: ١٨] . وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعاً ، ورياءً فقد كان النبي - ﷺ - إذا مشى كأنما ينحط من صيب ، وكأنما الأرض تطوى له ، ورأى عمر بن الخطاب . رضى الله عنه . شاباً يمشى رويدا فقال له ما بك أنت مريض ؟ قال لا يا أمير المؤمنين فعلاه بدرته يعنى عصاه التى كان يمسك بها ، وأمره ان يمشى بقوة ، فالمراد بقوله تعالى " هَوْنًا " السكينة والوقار ، كما قال رسول الله - ﷺ - " إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها واتم تسعون وأتوها وعليكم السكينة فما أدركتم منها فصولا ، وما فاتكم فأتوا " فهؤلاء قوم كما يقول الحسن البصري . رحمه الله . إن المؤمنين قوم نلت منهم . والله . الأسماع ، والأبصار ، والجوارح حتى يحسبه الجاهل مرض ، وما بالقوم من مرض ، وإنهم . والله . لا اصماء ولكنهم دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم ، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة فقالوا " الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن " اما والله ما أحزن الناس ، ولا تعاضم في نفوسهم شئ طلبوا به الجنة ، ولكن أبكاهم الخوف من الله ، إنه من لم يتعز بعزاء الله تقطع نفسه على الدنيا حسرات ، ومن لم ير الله نعمة إلا في مطعم او مشرب فقد قل علمه وحضر عذابه ، وهؤلاء القوم اذا سفه عليهم الجاهل بالقول السئ لم يقابلونهم عليه بمثله ، بل يعفون ويصفحون ولا يقولون إلا خيراً .

كما كان رسول الله . - ﷺ - لا تزيده شدة الجهل عليه الا حلما يقول سبحانه ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا...﴾ [سورة القصص: ٥٥] وقال رسول الله . - ﷺ - أما سب رجل رجلاً عنده فجعل المسبوب يقول عليك السلام ، فقال رسول الله . - ﷺ - أما ان ملكا بينكما يذب عنك كلما شتمك هذا قال له بل أنت ، وأنت أحق به ، واذا قلت له

وعليك السلام قال لا بل عليك وأنت أحق به " وقالوا سلاماً يعنى قالوا قولاً سديداً صحيحاً ، صادقاً منبعثاً من صدق إيمانهم ، وسلامة يقينهم ، وفي نفس المعنى يقول الحق سبحانه ﴿ وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ [سورة الصافات: ١٨١] والمعنى وسلام منا على الرسل الكرام وبحمده . عز وجل . تعليماً وإرشاداً للعباد وفي ذات المعنى يقول الحق سبحانه ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلِّمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ [سورة الذاريات: ٢٥] والمعنى حين دخلوا على إبراهيم . عليه السلام . فقالوا نسلم عليك سلاماً ، قال عليكم سلام ، انتم قوم غرباء لا نعرفكم فمن أنتم ؟ يقول ابن كثير " وانما أنكرهم لأنهم قدموا عليه في صورة شبان حسان ، عليهم مهابة عظيمة ، ولهذا أنكرهم . ويقول أبي حيان " والذي يناسب حال إبراهيم . عليه السلام . انه لا يخاطبهم بذلك ، إذ فيه من عدم الأنس ما لا يخفى ، وإنما قال ذلك في نفسه ، أو لمن كان معه من أتباعه وغلمانة بحيث لا يسمع ذلك الأضياف . والملائكة هم جبريل وميكائيل وإسرافيل .

فكل هذه الآيات تدعو المسلم الى التخلق بالأخلاق الحسنة ، والخصال الحميدة حتى يعم السلام في الأرض ، ويتأدب الناس بأدب الله ورسوله - ﷺ - فذلك خلق القرآن ، وخلق من نزل عليه القرآن وهو لأسوة الحسنة ، والقدوة العظيمة سيدنا محمد - ﷺ - . (١)

- 1- حاشية الصاوي ج ٢ ص ١٧ .
- الكشاف ج ٢ ص ٢٣ ، ص ٢٢٣ .
- زاد المسير ج ٣ ص ٥٢ .
- تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٣٥ ، ص ١٣٩ ، ص ٣٢٢ ، ج ٣ ص ٣٢٤ ، ج ٤ ص ٢٣٥ .
- مختصر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٣٨٥ .
- القرطبي ج ٤ ص ٢٤٣٢ وما بعدها ، ص ٢٣٧٩ وما بعدها ج ١٣ ص ٧٢ .
- تفسير المراغي ج ٣ ص ١٣٨ ، ج ٤ ص ٢٦ وما بعدها ،
- البحر المحيط ج ٨ ص ١٣٩ .
- تفسير ابن الجوزي ج ٨ ص ٣٦ .
- البيضاوي ج ٣ ص ١٢٦ .
- تفسير الطبري ج ١١ ص ١٨٦ ، ج ١٩ ص ٢٠-٢٣ .
- أبو السعود ج ٢ ص ٣١٠ .
- حاشية الصاوي على الجلالين .
- التفسير الكبير ج ٢٤ ص ١٠٨ .
- صفوة التفاسير ج ٣ ص ٤٧ .
- تفسير الفخر الرازي ج ١٥ ص ٢٠١ .